الوثيقة

العدد الثاني - السنة الأولى - ربيع الأول ١٤٠٣هـ - يناير ١٩٨٣م

يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين

إمارة قيس تنقل ولاءها طبقاً لتغير موازين القوى بين الخلافة العبّاسية والخوارزميّين

٩ ـ من مقاسم القطيف بستان القصير وبستان المشعري ودالية الدار والدار والفايدية ونصف طراز الغاصة الذين هم ليسوا من أهل القطيف وخمسة وثلاثين بهارا من الخراج لملك قيس زيادة على النصف عوضا عن بستان المصفاة التى فى الاحساء .

والمتأمل فى نصوص الاتفاقية يكتشف أن (قيس) جردت البحرين من معظم دخلها ولم تترك لسكانها سوى أقل القليل وتأتى خطورتها من أنها جعلت لحكام قيس ولسلطان شيراز عندما أصبحت قيس تحت سلطانه ولأمراء هرمز فيما بعد ذريعة للتدخل فى شئون البحرين والقطيف . وكانت الاتفاقية ثمنا باهظا لنصر رخيص وليس مستغربا بعد ذلك أن جعلت سرية وساعدت قيس الفضل على استعادة الحكم فى البحرين والقطيف ولكنه لم يتمتع طويلا بثمار النصر فسرعان ماذاعت نصوص الاتفاقية وكانت عاملا حاسما فى القضاء على العيونيين .

كانت قيس اذن قوة بحرية وهذا كان مصدر قوتها ونقرأ معا ما كتبه الشريف الادريسى المتوفى عام (٥٦٠ هـ / ١١٤٥ م) حول الموضوع قال :

« جزيرة كيش وهى جزيرة مربعة طولها اثنا عشر ميلا وعرضها اثنا عشر ميلا وفيها مدينة قيس تولاها عامل من اليمن فحصنها وأحسن الى أهلها وعمرها وأنشأ بها اسطولا وصاحب جزيرة قيس يغزو بهذا الاسطول مدينة الزاج ويصل الى الكمرون وأهل الهند يخافونه ويهابون شره ويواسونه بالمراكب المسماة بالمشعيات يكون طول المركب منها طول الغراب[١٦] الكامل من عود واحد يجدف

فيها مايتا رجل وأخبر مخبر فى وقت هذا التأليف أن عند صاحب مدينة قيس (كيش) من هذه المراكب المسماة بالمشعيات خمسون مركبا كل واحد منها من قطعة واحدة وعنده فى ساير المراكب الملفقة جملة عديدة . وهو الآن على هذا الحال يغزو ويسبى وعنده أموال كثيرة وليس لأحد به طاقة ولمدينة قيس زروع وأغنام وأثمار وبها مغاص اللؤلؤ الجيد » .

يستفاد من هذا النص أن القوة البحرية لقيس كانت قوة لا يستهان بها فى وقت كانت الجيوش حتى اعتاها لا تجرؤ على اجتياز البحر ، فالمغول توقفوا عند الشاطىء الفارسى للخليج لأنه لم تكن لهم اساطيل يعبرون بها المياه وسلطان مسقط وعمان اسس امبراطوريته التى امتدت للساحل الافريقى الشرقى معتمدا على اسطوله . فاذا صح ما اورده الادريسى فان خمسين سفينة ضخمة من نوع الغراب المشار اليه بالاضافة الى الاعداد الأخرى من السفن العادية لم تكن قوة بسيطة فى ذلك الوقت .

ويصف ياقون المتوفى سنة (٦٢٦ هـ/ ١٤٢٩ م) جزيرة قيس بأنها جزيرة فى بحر عمان دورها اربعة فراسخ وهى مدينة مليحة المنظر ذات بساتين وعمارات جيدة وبها مسكن ملك ذلك البحر صاحب عمان وله ثلثا دخل البحرين[١٧] وهى مرفأ مراكب الهند وبر فارس وجبالها تظهر منها للناظر ويزعمون أن بينهما اربعة فراسخ . رأيتها مرارا وشربهم من آبار فيها ولخواص الناس صهاريج كثيرة لمياه المطر وفيها أسواق وخيرات ولملكها هيبة وقدر عند ملوك الهند لكثرة مراكبه ودوانيجه وهو فارسى شكله ولبسه مثل الديلم وعنده الخيول العراب الكثيرة والنعمة الظاهرة وفيها مغاص اللؤلؤ وفى جزائر حولها كثيرة وكلها ملك صاحب كيش ورأيت فيها جماعة من أهل الأدب والفقه والفضل . وكان بها رجل صنف كتابا جليلا فيما اتفق لفظه وافترق معناه . ضخم رأيته بخطه فى مجلدين ضخمين ولا أعرف اسمه الآن » .

وجاء عن جزيرة قيس فى الموسوعة الاسلامية طبع ليدن ولندن سنة ١٩٢٧ صفحة ٦٤٩ ما يلى :

« قيس جزيرة صغيرة تقع فى الخليج الفارسى فى القسم الذى يسميه جغرافيو العرب فى القرون الوسطى ببحر عمان وتقع على ٥٢° من خط الطول (جرينتش) شرقا و٢٤° من خط العرض شمالا ويجوز اعتبارها من اهم الجزر الفارسية فى الخليج بعد جزيرة كشم وتمتد الى ١٠ أميال طولا و ٥ أميال عرضا وتنفصل عن البحر بممر طوله ١٢ ميلا مما يجعله ممرا مائيا آمنا وارض الجزيرة مسطحة رغم تواجد بعض الصخور عليها وهى مزروعة أكثر من أية جزيرة أخرى فى الخليج ويشير علماء الجغرافية من العرب والفرس فى القرون الوسطى الى رخائها وازدهارها وبصفة

خاصة الى ثروتها من الأشجار والنخيل والحقول والحدائق وصهاريج الماء بالاضافة الى التجارة والملاحة . وكان عدد سكانها فى ذلك الوقت لا يستهان به يمارسون صيد اللؤلؤ ونزلها عرب من قيس واسم قيس معرب عن الفارسية وهى (كيس) او (كيش) .

مما سبق يتبين لنا مدى القوة التى كان يتمتع بها سلاطين بنى قيصر ومدى الثراء الذى كانت تتمتع به قيس لدرجة جعلت حكامها يمدون نفوذهم لبعض شواطىء عمان وسواحل فارس فى القرن السادس وأوائل السابع الهجرى . وكان ولاء بنى قيصر للخلافة العباسية فى بغداد كما كانوا يدفعون للخليفة جزءا من وارداتهم وكان للخليفة الناصر ممثل فى قيس يتولى استلام ما للخلافة من عائدات سنوية . وهنا لابد من وقفة لمناقشة طبيعة مساعدة الأمير غياث الدين جمشيد للفضل بن محمد العيونى . فقد عرفنا أن الأمير محمد كان على صلة وثيقة بالخليفة وان ابنه الفضل لجأ الى الخليفة الناصر بعد مقتل ابيه طالبا مساعدته على الثأر . والنصوص التى بين ايدينا تقول ان الخليفة زوده ببعض الجند والسلاح ولكننا مع ذلك نراه يلجأ الى غياث الدين ابن الأمير تاج الدين جمشيد حاكم قيس وهذا يؤكد لنا أمرين : الأول أن الخليفة أرسل الفضل الى حاكم جزيرة قيس مع توصية بمساعدته خاصة وقيس بولائها للخليفة وبقوتها البحرية كانت مركز ثقل فى المنطقة ، والأمر الثانى أن : الاتفاقية السرية التى وقعها الفضل مع الأمير غياث الدين كانت معروفة للخليفة وبمباركته خاصة وهى تحول جزءا كبيرا من عائدات البحرين الى قيس التى كانت بدورها تدفع جزءا من عائداتها الى الخليفة بمعنى آخر أن الخليفة الناصر طلب من حاكم قيس مساعدة الفضل العيونى على استرداد ملك أبيه مقابل عائدات تأخذ قيس جزءا منها مقابل المساعدة العسكرية وتحول جزءا منها لمقر الخلافة .

على أى الأحوال لقد أحترم أمراء البحرين المتعاقبين بعد الفضل العيونى هذه الاتفاقية على الرغم من أنها كانت السبب فى القضاء على الحكم العيونى وفتح الباب لدولة العصافرة ثم الجبور والشىء المنطقى هنا هو أن الاتفاقية بقيت بعد ذهاب الفضل لأن القوة البحرية فى قيس كانت وراء ضرورة الالتزام بها . وبقيت العلاقة بين البحرين وقيس ودية خلال الفترة من ٦٠٦ هـ الى ٦٢٦ هـ وهى الفترة التى انتهى فيها حكم الأمير غياث الدين بن الأمير تاج الدين جمشيد وخلفه فى حكم قيس الملك سلطان قوام الدين .

أما علاقات قيس بامارة هرمز فكانت سيئة فقد وقفت هرمز بقوتها البحرية منافسا صعبا أمام قيس ولما كانت هرمز تملك هى الأخرى اسطولا قويا للتجارة والصيد والغوص فقد وقعت بين الامارتين عدة مناوشات وازاء هذا